

شعرية الشخصيات في أدب الرافعي - كتاب المساكين نموذجاً -
**poetic of the personalities in Al-Rafii's Literature -
The Book of the El-massakin as a Model**

عنتر رمضاني

جامعة غرداية - الجزائر -

كلية الآداب واللغات، قسم اللغة العربية وآدابها

مخبر التراث الثقافي واللغوي والأدبي بالجنوب الجزائري، (فرقة النقد والتراث بالجنوب الجزائري)

ramdani.antar@univ-ghardaia.dz

تاريخ الاستلام: 2021/03/14 تاريخ القبول: 2021/11/09 تاريخ النشر: 2022/06/09

ملخص

نحاول في هذا المقال استجلاء مبحث مهم في الشعرية؛ وهو شعرية الشخصيات كونها من أبرز التقنيات التي يعنى بها السارد في قصته أو روايته، ولأن الرافعي من الكتاب المجيدين للقص ولو أنه لم يكتب فيها كثيراً، إلا أننا في كتابه كتاب المساكين نلمس توظيفاً مناسباً لعنصر الشخصيات الواردة في قصصه من هذا الكتاب، ولأنه يتمتع بقدر سرديّة غريبة وبديعة تنبع من أسلوبه وأفكاره التي تكون أكثر عمقا وتأثيراً، فسنحاول فهم كيف وظف الرافعي هذه الشخصيات في كتاب المساكين، وما المعاني المختزنة وراء توظيفها بهذا الشكل، وما الذي تؤديه شعريتها خاصة وأنها عنصر من عناصر القصة التي هي شكل من أشكال السرد.

كلمات دالة :

الشعرية، الشخصيات، الرافعي، السرد، المساكين.

Abstract:

In this article we try to elucidate an important topic in poetry, which is the poetry of the characters being one of the most important techniques that the narrator is concerned in his story or his novel. Because Al- Rafi'i extending the story, even though he did not write much, but we feel appropriate employment of the characters In his stories from this book, and because it has a strange and exotic narrative, stems from his style and ideas that are more profound and influential. We will try to understand how al-Rafi'i employed these characters in the book of the poor, and the meanings stored behind the employment in this way, and what does this poetry especially as it is an element of the story that is Form of Narrative.

Key word:

Poetry, Characters, Rafii, Narration, El-massakin.

مقدمة

مازال أدب الرافعي في حاجة للبحث أكثر في تقنيات الكتابة لديه، والخطة التي انتهجها في كتاباته، خاصة ما تعلق منها بفنون النشر كالقصة والمسرحية وغيرها، ولأن شهادات الأدباء الكبار فيه قد بينت مكانته العلمية، وشهد له القاضي والداني بأن قلمه لا يشق له غبار، طرقتنا باب دراسة كتاب من كتبه، وهو كتاب "المساكين" الذي ترجم فيه نظرتة للفقر والغنى وبين فلسفته فيهما، وما استند فيه الرافعي لترجمة هذه الفلسفة توظيفه للقلب القصصي في بعض فصول الكتاب، واستثمر تقنية الشخصية لتصوير أحداثها، والاستفادة من التعبير بما أكثر، لرصد المعاني التي يريد الإخبار بها في قصصه المذكورة، فكيف وظف الرافعي هذه الشخصيات؟، وكيف سمّت بأدبه إلى الإبداع؟، وما دلالتها وكيف عبرت عن المعاني التي يرومها الرافعي؟، كل هذا وغيره سنتطرق إليه في طيات هذا البحث.

والموضوع مهم في جانب الدراسات السردية خاصة باب الشعرية بصورة أكبر، وإذ نبحت في شعرية الشخصيات، فإننا نقتفي آثار العمل الإبداعي ومعرفة ما الذي جعله عملاً أدبياً، والجدير بالذكر أن هذه الدراسة تعد الأولى في باب الشعرية لدى الرافعي في كتاب المساكين، وإن كانت هناك دراسة للدكتور سعيد فرغلي حامد، ولكنه لم يضع لها موضوعات عامة واكتفى بنماذج من

كتبه الأخرى، كروية الرافي الأديبة ومذهبه في الكتابة، وكذا الجانب الفني في صوره التعبيرية وغيرها. ونرجو أن يكون هذا البحث إضافة مهمة في باب الشعرية عامة وفي أدب الرافي خاصة.

يتمتع الرافي بقدره سردية غريبة وبديعة، فغرايتها تنتج من طرقها موضوعات بسيطة عادية أو كما يظنها الناس هكذا، ولكنه يلبسها ثوبا كبيرا عميقا حتى لا تكاد تعثر على قارئها، وبديعة في الوقت نفسه لأن الناتج منها يكون مؤثرا أعمق الأثر فيمن يقرأها ويستوعبها، ذلك أن اللغة التي يكتب بها الرافي تنتمي إلى ذلك الطراز الفصيح والمعبر من لغتنا، والذي كان سائدا في عصر الازدهار الثقافي والأدبي، ويمكن أن نصفها باللغة الجاحظية؛ نسبة إلى أسلوب الجاحظ أديب العربية الأكبر في مجال النثر الأدبي (الرافي، 2015). ونشير في هذا البحث إلى أمر مهم، وهو طريقة الكتابة عند الرافي، أو كيف كان يكتب، كون هذا مما يعيننا على فهم آليات الكتابة والسرد عنده حيث يقول محمد سعيد العريان: "اختيار الموضوع، كان أول عمل يحتفل به الرافي، وإذا كان لم يعمل في الصحافة قبل انشغاله بالرسالة، فإنه لم يتعود من قبل أن يفتش عن الموضوع، إذا لم يكن يحاول الكتابة إلا أن يدفعه إلى الكتابة دافع يجده في نفسه قبل أن يطلبه، فلما دعاه صاحب الرسالة إلى العمل معه، راح يلتمس الموضوعات التي تصلح أن يكتب فيها للرسالة، فكان يضيق بذلك ويتحير، ثم لم يلبث أن تعودها، فكان يرسل عينه وراء كل منظر، ويمد أذنه وراء كل حديث، ويرسل فكره وراء كل حادثة، ويلقي باله إلى كل محاورة، ثم يختار موضوعه مما يرى ويسمع ويشاهد ويحس، ثم لا يهم أن يجمع له فكره ويهيئ عناصره، إلا أن يجد له صدى في نفسه، وحديثا في فكره، وانفعالا في باطنه، وكثيرا ما كان يعرض له أكثر من موضوع، وكثيرا ما كان يتأبى عليه القول فلا يجد موضوعه إلا في اللحظة الأخيرة، واللحظة الأخيرة عنده قبل موعد ارسال المقال بثلاثة أيام، فمن خشية ذلك كان دائما في جيبه ورقات يكتب في احداها عنوان كل ما يخطر له من موضوعات الأدب، ليعود إليها عند الحاجة، ويتخذ الورقات الباقية مذكرة فيها الخواطر التي تتفق به في أي من هذه الموضوعات أين يكون، ويلغ بذلك أن يجتمع عنده في النهاية ثبت حافل بعناوين مقالات لم يكتبها ولم يفرغ لها، وورقات أخرى حاشدة بخواطر ومعان شتى في أكثر من موضوع واحد، لا تربط بينها رابطة في المعنى ولا في الموضوع. ومن هذه الورقات ومن فضلات المعاني في المقالات التي كتبها وفرغ منها- كان يختار (كلمة وكلمة) التي كان ينشرها على قراء الرسالة في فترات متباعدة كلما وجد حاجة إلى الراحة من عناء الكتابة، فهذه الكلمات هي احدى ثلاث: خواطر مبعثرة كان يلقيها في وقتها، أو عناوين موضوعات لم تنتهيا له الفرصة لكتابتها، أو فئات من مقالات كتبها وفرغ منها وبقيت عنده المعاني بعد تمام الكتابة إذ لم يجد لها موضعا مما كتب،

... فإذا تم له اختيار الموضوع الذي يتهياً لكتابته، تركه للفكر يعمل في ه عمله، وللواحية الباطنة تهيئ له مادته، ويدعه كذلك وقتاً يطول أو يقصر، يقيد في اثنائه خواطره لا تكاد تفلت منه خاطرة، وهو في ذلك يستمد من كل شيء مادة وحي، فكأن في كل موجود يراه صوتاً يسمعه، وكأن في كل ما يسمعه لونا يراه، وكأن في كل شيء زائداً على حقيقته يملئ عليه معنى أو رأي أو فكرة. فإذا اجتمع له من هذه الخواطر قد كاف والقدر الكافي لتجتمع له هذه الخواطر هو يومان أو ثلاثة أخذ في ترتيبها معنى إلى معنى، وجملة إلى جملة، ورأياً إلى رأي، فهذه هي الخطوط الأولى من هيكل المقالة. ثم يعود بعد ذلك إلى هذه الخواطر المرتبة بعد أن ينفي عنها من الفضول ما يدخره لـ "كلمة وكلمة"، أو لموضوع آخر، فينظر فيها، ويزاوج بينها، ويكشف عما وراءها من معان جديدة وفكر جديد، ولا يزال هكذا: يزاوج ويستولد، ويستنتج من كل معنى معنى، ويتفطر له عن كل رأي رأي، حتى تستوي له المقالة فكرة تامة بعضها من بعض، فيكتبها، إلى هنا يكون قد انتهى عمل الذهن، وعمل النفس، ويبقى عمل الفن والصناعة لتخرج مقالة الرافعي إلى القراء في قالبها الأخير الذي يطالع به الأدباء (العريان، 1955). وهكذا كان الرافعي رحمه الله وطريقته في الكتابة يعاني معها ويشغل في سبيل إخراجها شغلاً دوّبا إلى أن يجليها لقرائه في أبهى حلة وأجمل طلة.

والسرد رهان التواصل كما يقول رولان بارت، والعمل السردى رسالة يتداولها فاعلان هما المرسل والمرسل إليه عبر رسالة وهي فحوى الخطاب الذي يعبر عنه المرسل، في قناة هي شكل ذلك الخطاب مسموعاً أو مكتوباً، حيث يتجلى تواصلهم في ثلاث مستويات تبعا لطبيعة الطرفين المائلين في كل مستوى حيث يمكن وضع هذه المستويات كما يلي:

- 1- المؤلف الفعلي ----- القصة ----- القارئ الفعلي
- 2- المؤلف المفترض ----- القصة ----- القارئ المفترض
- 3- السارد ----- الخطاب ----- المسرود له

يمثل المستوى الثالث بمكوناته الثلاث السارد، السرد، المسرود له المستوى الذي يحيل إليه كل خطاب تخيلي، فالسارد هو الذي يسرد الحكاية، والسرد هو عمل هذا السارد والطريقة التي يعرض بها حكايته، أما المسرود له فهو متلقي السرد، وغياب أي عنصر من هذه العناصر يحدث اختلالاً في العملية التواصلية، بل إن قيمة أي عنصر تتحدد إلا في علاقته بالعنصرين الأخيرين (نخاعة، 2012)، ومحور اهتمام الدراسات السردية الحديثة عن تقنيات السرد: "إذا لا يمكن أن نقول شيئاً مفيداً حول رواية ما، ما لم نهتم بدراسة الطريقة التي صنعت بها، ففي كل نقاشاتنا حول الرواية أو القصة نعاني من جهلنا بما يمكن أن نسميه تقنية الرواية أو القصة،

وبالتالي فإن هذه التقنية هي المظهر الذي تجب دراسته (وآخرون، 1989)، ومن هذه التقنيات: الراوي، الزمان، المكان، الشخصيات، ... الخ.

والشخصيات من أبرز التقنيات التي يعنى بها السارد في قصته أو روايته، وقبيل الخوض في كيف أسهمت الشخصية في جعل النص مليئا بملاح الشعريّة، حري بنا الوقوف عند مفهومها لغة واصطلاحاً.

مفهوم الشخصية لغة واصطلاحاً وأنواعها:

– **الشخصية لغة:** من ناحية اللغة يأتي من مادة "شخص" يقول ابن فارس: "الشين والحاء والصاد" أصل واحد يدل على ارتفاع في شيء، من ذلك الشخص، وهو سواد الانسان إذا سما لك من بعد" (زكريا، 1399 - 1979)، وفي لسان العرب يقول ابن منظور: "الشخص جماعة شخص الانسان وغيره، مذكر، والجمع أشخاص وشخوص وشخاص، والشخص أيضا سواد الانسان وغيره تراه من بعيد. فالشخص شكل له حجم وحضور وكيونة وهو ذات الانسان وما لها من أدوار أو أفعال من خلال ما ورد في اللغة، كلمة "شخصية" فإنها لم ترد إلا في العصر الحديث، وقد جاءت مترجمة عن اللغة الفرنسية في الأصل التي استخدمت فيها كلمة شخص (Personne) في القرن الثاني عشر الميلادي (الحجيلان، 2009). وهي مشتقة من الأصل اللاتيني (Persona)، وهذا الأصل «يدل في البداية على القناع الذي يضعه الممثل على وجهه أثناء أداء الدور المسند إليه، ثم صار بعد ذلك يدل على الدور نفسه» (العربية، 1973).

وظهرت كلمة شخصية (Personnage) بعد كلمة شخص في منتصف القرن الثالث عشر الميلادي، واشتهرت في القرن الخامس عشر الميلادي، وقد استخدمت في حقل علم النفس كما تشير لذلك الموسوعة الفلسفية بأنها «مأخوذة من الترجمة الفرنسية (Personnalité)، وتعني الخصائص الجسمية والوجدانية والعقلية والنفسية التي تعين الفرد وتميزه عن غيره؛ فلكل شخص شخصية تحسه دون سواه» (الحجيلان، 2009).

■ **مفهوم الشخصية اصطلاحاً:** مما لا شك فيه أن مصطلح الشخصية له أبعاده النفسية والاجتماعية والفلسفية، غير أن ما يهمنا في هذا السياق هو البحث عن مفهوم الشخصية من منظور الدراسات الأدبية أو النقد الأدبي، ولو أنه دخل في مفهومه الأدبي من بوابة علم النفس، وهناك من ربط الشخصية بكاتب النص، لتكون الشخصية هي «الكاتب الذي ظل في بعض تجربته في حال كمون» (برجسون، 1983)، وكأن الشخصية التي يتناولها في قصته أو حكايته هي جزء منه أو اسقاط لشخصيته، وهناك من ربط الشخصية بالواقع لكي تمثل نماذج اجتماعية معينة، وبذلك تكنسب الشخصية أصالتها (جورج، 1972).

وتعين بعض المعاجم الحديثة عدة استعمالات للشخصية منها:

- «الفرد المتمتع بمحظوة اجتماعية بارزة» (صليبا، 1982).
- «الفرد التاريخي أو الخيالي في الأعمال الفنية، أو الدور الذي يؤديه المؤدي» (كمال، 1984).

— «الفرد الذي يسلك سلوك غيره في مقام السخرية» (صليبا، 1982).

وتبين هذه الاستعمالات معنى الشخصية، من حيث كونها شخصا يقوم بدور معين في العمل الخيالي (القصصي). ويلاحظ أن ثمة ثلاثة عناصر في هذا التعريف تشترك في إبراز مفهوم الشخصية هي:

- الشخص، وهو الفرد الذي يسند إليه الدور.
 - الدور، وهو الوظيفة التي يقوم بها الشخص.
 - الشخصية، وهي مجموع العلاقات بين الشخص والدور الذي يقوم به، مضافاً إليهما ما يربط بهذه العلاقة من مكونات فطرية أو مكتسبة.
- ومعنى هذا أن الشخصية تقوم على علاقات متداخلة ومتشابكة في محتوى السرد، ولا نعي هذه الشخصية إلا من خلال البحث في تلك المواقف المتداخلة فيما بينها، وفيما يأتي استعراض لآراء بعض الدارسين المعنيين بالشخصية القصصية.

وأشار بيرسي لوبوك (Percy Lubbock) إلى الشخصية حينما تحدث عن الطرق التي صاغ بها جوستاف فلووير (Gustave Flaubert) شخصية مدام بوفاري في روايته المسماة باسم الشخصية، وطرق روايته للأحداث المرتبطة بها. وقد نبه إلى ارتباط الشخصية بعناصر مختلفة منها ما يتعلق بقدرات البطل التي تؤهله للدور، ومنها ما يسند المؤلف لهذا البطل لكي يكون بالكيفية التي ظهر بها (الحجيلان، 2009). بمعنى أن الكاتب هو المتحكم في سيرورة العمل والدور لهذه الشخصية وربطها بالعناصر المختلفة لها داخل الحكاية أو الرواية أو القصة، كما حاول فورستر (E.M. Forster) تفسير الشخصية من خلال النظر إليها في النص من جهة، ومن خلال علاقتها بالمؤلف، بوصفه يشترك مع الشخصية بكونه كائناً بشرياً، من جهة أخرى. ويرى أن الشخصية القصصية ليست مماثلة لما هو في الواقع فحسب، ولكنها ينبغي أن تكون مطابقة له. ويشير إلى أن معرفة المؤلف بشخصياته هي على وجه التقريب؛ ولهذا فرمما يفهم القارئ عنها أكثر مما يفهمه المؤلف، وقسمها إلى قسمين:

● أنواع الشخصيات: يمكن تقسيم الشخصيات إلى ما يلي:

- 1- الشخصية السطحية: وهي ما يعرف بالشخصية الهزلية، وتمثل النموذج الذي لا يتغير طوال النص، وليس له أثر يذكر مهما تغيرت الأحداث والمواقف.

2- الشخصية المغلقة: تتكون من مجموعة من السمات، تجعلها لا تستقر على حال واحدة، ويصعب التنبؤ بمصيرها، فتدهش القارئ بما لا يتوقعه، ومن ناحية أخرى تقنعه بما أدهشه، كما أن لها تأثيراً على الأحداث والشخصيات الأخرى بسبب تطورها الدائم (الحجيلان، 2009). وحاول "إدوين موير" وصف الشخصية من خلال ما تمثله من عالم قصصي، منتقداً آراء فورستر ولوبوك بشأن وجود نمط ثابت للشخصية. ويرى أن الشخصية لا يمكن الغض من شأنها بتصنيفها في نماذج لكون الشخصية كالحياة مليئة بالعناصر التي تستعصي على الحصر والتوقع؛ فثمة شخصية تتمحور حولها الأحداث وتتوافر في رواية الشخصية، وقد تكون الشخصية عنصراً في الحدث كما في الرواية التسجيلية والدرامية (الحجيلان، 2009).

هذا باختصار مفاهيم الشخصية من خلال تناول النقاد لها وتمايز التعريفات فيما بينها وتقسماهم واختلافها من ناقد لآخر، وهناك تقسيمات أخرى للشخصية يمكن حصرها فيما يلي:

1- الشخصية البطل: هو الصورة النبيلة لأفعال المسندة إليه، مرتبطاً بالفعل القوي الشديد، وقد أطلق أرسطو "البطل" في المسرح على الشخصية الرئيسة التي تظهر بكثرة وترتبط بها مجموعة الأحداث والمواقف.

2- الشخصية الدور: وقد اعتنى بهذا المصطلح الباحث الروسي "فلاديمير بروب" الذي ركز على الأفعال التي تقوم بها الشخصية في الحكاية. كما أكد "كلود بريمون" على أهمية الدور القصصي بوصفه قانوناً يتكرر في قصص أخرى.

3- الشخصية الفاعل: أشار رولان بارت إلى كون الشخصية فاعلاً في النص القصصي ولهذا الفاعل وظائف يظهر من خلالها دوره في القصة، ودوره متصل بعلاقات مرتبطة بدلالة: "التواصل الرغبة الاختيار". وقد اهتم "جيرار جينيت" بفكرة الفاعل في العمل القصصي، كونها ترتبط بفعل يلخص الحكاية وفق نظام مرتبط بزمن.

4- الشخصية العامل: والعامل مجموعة العلاقات في النص القصصي، أشار غريغاس إلى أن العامل هو تطوير لمفهوم الوظيفة، ويمكن توضيح مفهوم العامل من خلال الشخصيات لسبع التي صنفها "بروب" تبعاً لأدوارها، وقد جعلها غريغاس في ستة أدوار، من خلال ثلاثة أزواج من الأضداد الثنائية للعلاقات التي تجمع هذه الأدوار وهي:

أ- علاقة الرغبة: بين الذات والموضوع.

ب- علاقة الاتصال: بين المرسل والمتلقي.

ت- علاقة الإعاقة: بين المساعد والمخصم (الحجيلان، 2009).

ويميز هيجل ثلاثة أصناف من الشخصيات تبعاً لدورها، وهي «البطل الملحمي الذي يصارع قوى الطبيعة، والبطل التراجيدي الذي يخضع للأهواء والرغبات فتعوقه عن الفعل، والبطل الدرامي الذي يوفق بين أهوائه والواقع (الحجيلان، 2009)، والتقسيمات متعددة حسب كل ناقد ونظرة وتحليله للروايات أو القصص أو الحكايات، كذكرهم أن هناك شخصية نامية ومسطحة، ومركزية ونامية وغيرها (مرتاض، 1998).

هكذا تناول النقاد مفاهيم الشخصية وتعريفها كل بحسب نظره وتوجهه وفلسفته أحياناً، والأديب في قصصه وكتاباتاته يتناول قضايا ومواضيع متنوعة يعبر فيها عن رأيه أو عن أفكاره أو عن فلسفته، والرافعي واحد منهم عبر عما تجيش به خواطره وترجم كل ذلك في كتبه سواء أفكار دافع عنها أو مبادئ ذاد عنها أو أفكار دعا إليها، ككتاب "تحت راية القرآن، أو وحي القلم، أو كتاب المساكين، وغيرها، ونحن إذ ندرس كتاب المساكين سنحاول سبر أغوار الشخصية التي اختارها الرافعي في هذا الكتاب وقد أشرنا فيما سبق أن الفل المعني بالدراسة في هذا المبحث هو : مسكينة مسكينة، سحق اللؤلؤة، فما هي الشخصيات التي اختارها الرافعي في هذين الفصلين، وأين تكمن شعريتها؟ وهل وفق الرافعي في اختيارها؟ وما علاقتها بمضمون الكتاب؟ كل هذا وغيره سنعرّج عليها فيما يلي:

3- شعرية الشخصية في قصة مسكينة مسكينة:

يتناول الرافعي في هذا الفصل من كتاب المساكين الذي هو فلسفته ونظرة عن الفقر وتصحيح مفاهيمه عند الناس، قصة فتاة مسكينة اتعبتها أهوال الحياة ولا شر فيها أعظم من أن تعيش فتاة فقيرة، رهينة الموت وهي على قيد الحياة، يسند الكلام عنها "للشيخ علي" الذي يعتبر بطل كتاب المساكين أو القاص أو السارد فيها، مع أن الرافعي استوحى حكاياته من تلك الشخصية كما جاء في ترجمة المدونة، وسبب تأليفه ومناسبتة. وموضوعها هو ذكر مأساة من المآسي الكثيرة التي يتعرض لها المساكين رجالاً كانوا أم نساء، وقد صاغ الرافعي موضوعه هذا في إطار قصة، وهو كثيراً ما يعمد إلى هذا النهج في "المساكين". (الشكعة، 1999).

حيث يستفتح الرافعي القصة بقول الشيخ علي: "واسمع يا بني ما أقص عليك، فإني محدثك بخبر ليتني ما علمته، بل ليتني إذ علمته ما وعيته، وليتني إذ وعيته ما أثبتته ولا نفذت فيه كما نفذ في" (الرافعي، 2015). هذه اللغة المتألمة لما رآه الشيخ علي وقد تأسف لما رأى تلك الفتاة بدل أن تعيش في رفاية وسعادة علم من حالها أنها صورة من صور الشقاء والبؤس، وهذه الصورة كثيرة وموزعة في اقطار المجتمعات الفقيرة والمحكوم عليها بالألم والمعاناة في الحياة. "هذه الفتاة التي كانت تعيش في قرية الشيخ علي خرجت تلتمس الرزق في بعض المدن القريبة، فعجزت عن الكسب، وعادت إلى القرية أكثر ما تكون فقراً ومسغبة، وأشد ما تكون عناء

وبؤسا" (الشكعة، 1999). غرقت هذه الفتاة البائسة المسكينة في بحار الفقر والفاقة والمرض، وصارت إلى الأموات أقرب منها إلى الأحياء، وهمت بالانتحار غرقا في النهر، ولكن طفلا فقيرا يعمل لكسب قوت يومه لنفسه ولأمه يلمحها على تلك الحال المبكية من الجوع والهيم، فيعطئها بعض الطعام، وهو يرتجف خوفا من أمه التي سوف تعرف أنه عبث بالطعام. وبينما هي على تلك الحال تحت امرأة على توحى ورتحا لأول وهلة بأنها من أهل الثراء والغنى والكبر، تسير في الطريق يملؤها الغرور، يصفها الرافعي رحمه الله بقوله: "وهي من أولئك اللواتي يخرجن الغنى معهن في الطريق، لا حارسا ولا منعما، ولكن للكيد والفتنة، فتنة المساكين، وكيد الحاسدين، فخرجت في زينتها وكأنها حانوت جوهري". لتلتقي تلك الفتاة البائسة بالمرأة المغرورة، فتتأمل فيها صورة الملجأ من المعاناة التي تعيشها وملاذ من الفقر والآلام التي تحيط بها، -أو هكذا تحيلت- فألتقت المسكينة بنفسها في طريقها، وجري بينهما حوار أجراه الرافعي بحذق المتمرس وعاطفة الإنسان، أجاد فيه من جديد التعبير عن النفس المكومة البائسة، والروح المتغترسة الثرية الشريرة، انتهى بأن نظرت المرأة الثرية نظرة ازدراء واحتقار وقالت الفتاة: "مسكينة مسكينة"، ثم تؤدي المقادير التي يجريها الله على خلقه دورا عجيبا حين تعود المرأة الثرية إلى بيتها فتجد ابنتها الشابة الجميلة تفترسها الحمى وهي في فراشها، فأخذت تسأل الله العافية ابنتها وتناجي خالتها، قائلة يا رب مسكينة مسكينة، ويطول المرض بالفتاة الثرية الجميلة، ويصنع القلق بأمرها ما يصنعه البلاء غير المتوقع فيذهب بهاؤها ويذوب كبرها، وبينما هي في الطريق ظهرت تلك الفتاة الفقيرة وكانت قد أصابت عملا وتيسر حالها وتحسنت أحوالها وشاهدت ما حل بالمرأة الثرية من حزن باد وهم كاسر، وبكاء ودموع، فرفعت بصرها إلى السماء، وقالت: "مسكينة مسكينة". ويختم الرافعي رحمه الله الخبر أو القصة بقوله تعالى: **قُلِ اللَّهُمَّ مَالِكُ الْمُلْكِ تُؤْتِي الْمُلْكَ مَنْ تَشَاءُ وَتَنْزِعُ الْمُلْكَ مِمَّنْ تَشَاءُ وَتَعَزُّ مَنْ تَشَاءُ وَتَذُلُّ مَنْ تَشَاءُ** بيدك الخير إنك على كل شيء قدير (آل عمران الآية: 26).

فمجموع الشخصيات في هذه القصة هو: الفتاة المسكينة، الطفل الذي قدم المساعدة، الأم (أم الطفل)، المرأة المغرورة، الخالة وهي أخت المرأة المغرورة، البنت (بنت المرأة المغرورة والثرية). يمكن تقسيمها في المخطط وتوضيحها أكثر:



والغالب على القصة الوصف والحوار بين الفتاة وتلك المغرورة بغناها. وشخصية الفتاة تعبر عن الفاقة التي تمس المجتمع مجتمع المساكين والبؤساء ولعل المجتمع يحوي الكثير من النسخ عنها، فجعل الرافي في هذه القصة الشخصيات موزعة على الأصناف التالية:

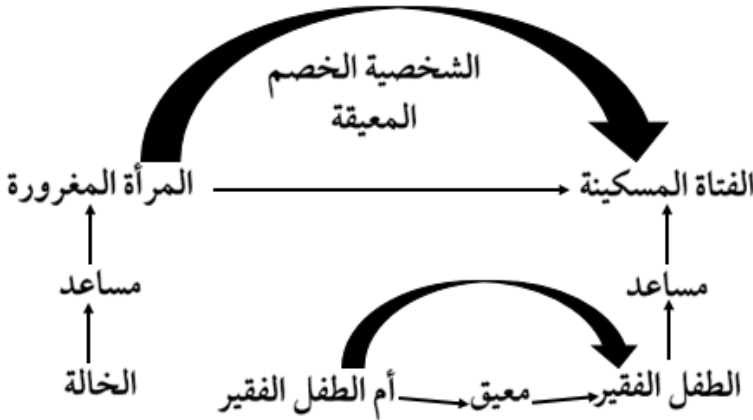
أ- الشخصيات الرئيسية: الفتاة المسكينة، المرأة الثرية المغرورة.

ب- الشخصيات الثانوية: الجدة، والخالة، وابنة المرأة المغرورة.

ت- الشخصية المساعدة: الطفل والخالة.

ث- الشخصية المعيقة: المرأة المغرورة والثرية.

مخطط الشخصيات:



الشخصية الضحية: ابنة المرأة المغرورة

تفاعل هذه الشخصيات فيما بينها عبر مجموعة من المواقف والأحداث والظروف يحصرها زمان ومكان معين، في إطار سردي معبر، يتألق فيه الرافي بفلسفته العميقة حول الفقر ومعاناة المساكين، جسدها شخصية الفتاة المسكينة "التي اختار لها الرافي اسم المسكينة لما تعانیه من المسغبة نتيجة ظروفها القاهرة بعد أن توفيت جدتها الفقيرة، والفتاة هي الشخصية البطلة والفاعلة في القصة، في حين نجد الطفل هو الشخصية المساعدة أو المؤيدة والمعينة

لشخصية الفتاة، وشخصية المرأة المغرورة هي الشخصية الخصم، وابنة المرأة المغرورة هي الشخصية الضحية التي يطالها المرض والحمى لتتغير أحداث القصة ومجرياتها وتقلب إلى عكس ما كانت الأم تتصوره من دوام الغنى والأبهة التي تعيش فيها. لتكرر مفردة طالما رددتها والغرور يلبسها ونظرتها نظرة ازدراء واحتقار لتلك الفتاة المسكينة، لتكررها مرة أخرى ولكن بنظرة حزينة تتأوه وهي تقول ناظرة لحال ابنتها المريضة: مسكينة مسكينة.

أ- **الشخصية الرئيسية:** الفتاة المسكينة: تحتل شخصية الفتاة الطرف الرئيس في القصة، كونها محور القصة وكيانها المعني بترجمة ما يبثه الرافي في فصولها، حيث أضفى عليها سمة البؤس القاتل، والمعاناة القاهرة، لتخرج من البيت الذي شبهه بالحفرة بعد وفاة جدتها التي كانت آخر ما تبقى لها في هذه الحياة، بعد وفاة والديها أو ربما هلاكهما فقرا ومسغبة، بسبب الحروب وغيرها، وفي ذلك يقول الرافي على لسان الشيخ علي: "كان لنا يا بني في هذه القرية النضرة فتاة بائسة ضاق بها العريض من هذا البر فخرجت إلى بعض المدن تستطعم الحياة" (الرافي، 2015). هكذا تبدأ الفتاة المعاناة بعد خروجها من القرية التي ظلت شريذة فيها عليها تجد ملجأ أو مدخرا في سيرها نحو تلك المدن القريبة، فلنلاحظ أن هذه الشخصية تحمل جل المعاناة خاصة وأنها قد ضاقت بما السبل ولم تجد ما تسد به رمق الحياة والعيش، وما زاد في معاناتها وألمها هو معاملة الناس لها واستهزاؤهم بها: يقول الرافي: "أما الفتاة فكل الناس يهزأ بها، وهي ترى كل انسان على ملكه كأنه قانون وضع لعقابها إذ حدثتها النفس حديثا، فقد بلغت من الضعف والمرض والفاقة إلى حال لا تجعل يديها تصلحان لعمل غير الأخذ، فإن اختلست قبل سارقة، وإن سألت قبل متشردة فكذاك" (الرافي، 2015). وشخصية الفتاة تتدرج عبر تلك المعاناة وتلك اليوميات المشؤومة لتصل حد الإحشاء والزوال، وهذا ما يعرف بالعقدة في بناء القصة، فهل تنتهي القصة إلى أن تصل الفتاة إلى درجة الانتحار واليأس من البقاء، وأنت ترى كيف أن الرافي صور هذه الفتاة وكيف أن الفقر يلبسها ويتجلبب بها وتحيط بها المعاناة من كل جانب، فما إن تقرأ وصفه لهذه الفتاة إلا وتستشعر ذلك الكم الهائل من البؤس والفقر والمعاناة مع الحياة، يقول الرافي: "وكذلك أخذت سمتها إلى طريق النهر، وأمضت نيتها على الموت غرقا، لتموت نظيفة، وتكون لنفسها غاسلة، وترسل روحها المتألمة إلى السماء في دموع السماء" (الرافي، 2015). فقررت الفتاة المسكينة الانتحار بعد كل ما تحملته لتكوت ميتة نظيفة كما صورها الرافي، وتغسل نفسها بنفسها في مياه النهر النقية بعيدا عن ضنك الحياة في وجوه أولئك المستهزئين والمتشائمين والحافدين.

ب- الشخصيات الرئيسية: المرأة المغرورة: التي تلتقي بها في زحمة الطريق، وكانت عليها حلة الغنى والكبرياء والغرور، "ولو كان للكبرياء رسم ما رأيته غير رسمها، وقد أورثها الغنى ذلك الغرور بنفسها، حتى توهمت أنها في الأرض أخت شمسها..." (الرافعي، 2015). فأعطى الرافعي هذه المرأة الغرور الذي يليق بها وأسبغ عليها صفة الغنى الفاحش والثراء الكبير، حتى جعلت من نفسها كتلة من الكبرياء تمشي وتأنى بنفسها عن معشر المساكين، وما يدل على ذلك وأن هذه الشخصية المتعجرفة التي تشمئز منها النفس كلما قرأت وصفها وكيف هي، وطريقة الحوار بينها وبين تلك المسكينة تبرز لك قبح الغرور والتكبر على الفقراء والمساكين خاصة وأن هؤلاء الأغنياء لهم من سعة الرزق ما يغرق هؤلاء المساكين في بهجة السعادة وسرورها ولو في زاوية من زواياها، ومما جاء في الحوار بينهما:

- تقول الفتاة: سيدتي أدام الله نعمته عليك وهناك هذه النعمة بدوامها.
- هي دائمة، وما أنت والنعمة؟
- سيدتي، وفاق الله ما أنا فيه من بأساء الحياة ولا كتب عليك أن تعرفي ما هي؟
- فلماذا أنت وأمثالك في الحياة أيتها الحمقاء؟ وهل يكتب تاريخ البؤس إلا في صفحة من مثل هذا الوجه؟

● سيدتي، ألا مهلاً مهلاً، وانظري إلي ينظر الله إليك (الرافعي، 2015).
فها هي ذي المرأة المتعجرفة تتسلط بجبروتها الذي تستمده من غناها، ويعينها عليه فقر تلك الفتاة المسكينة، تستجديها طلباً للنعون لدرجة أن قالت لها:

- سيدتي هبيني خادماً أحسنت إليه...
- لترد عليها: فلتكوني خادماً طردتها إن بلغت أن تكوني خادماً مثلنا.
- فتجيبها المسكينة: يا ويلنا ألا رحمة في قلبك فتجودي علي بما لا بأس عليك منه؟ (الرافعي، 2015)

فكل محاولات هذه المسكينة باءت بالفشل، فنرى كيف أن هذه الشخصية المتسلطة قد أدت الدور الذي يمليه عليها كبرياؤها وتغطرستها، وألبسها الرافعي لباس الغنى الذي لا يفارقها كأنها حانوت متنقل كما قال. فتظلم وتستبد وتظن أنها غلبت وتسلطت بقوة غناها وغرورها ولكن هيهات.

الشخصيات الثانوية: تسير الشخصية الثانوية، جنباً إلى جنب، مع الشخصية الرئيسية، وتنفع بالأحداث من حولها، دون أن تكون فاعلة بها إلا في نطاق ضيق، وقد قدم الرافعي هذه الشخصية ومثلها أحسن تمثيل في شخصية:

ج- **الطفل الصغير:** الذي يقدم يد المساعدة لتلك الفتاة المسكينة، والتي تلتقيه وهي تقيم في الطريق باحثة عن أمل يثبت فيها نفس الحياة، يقول الرافعي: "وإنما لذلك إذ لحها طفل قروي قد انقلب من المدينة إلى الضاحية التي غادر فيها أمه العمياء، وكان يعتمل طوال يومه في بعض المصانع أو هو يحمل طعامها الذي لم ينله إلا ببيع نفسه يوما كاملا، ... وبصر بها وأدرك أن روحها تخطو بأنفاسها، وأنه الجوع لا غير وهو من أبنائه، طالما شد عليه حتى انطوى، ولأن لغزاته حتى التوى، وما يعرف أنه ابن أبيه وأمّه، وأكثر مما يعرف أنه ابن فقره وهمه، فابتدر إلى المسكينة، وكانت حركة الحياة فيها أسرع من حركة أضراسها في طعامه، ثم ذهب لا يعرف ما صنع، لأنه طفل؟ أو لأنه فقير؟ لا أدري (الرافعي، 2015)... هذه الشخصية على الرغم من دورها الثانوي إلا أنه كان لها دور مساعد غير مجريات القصة، بعد أن صارت أقرب إلى الأفلو، وبعد أن قطعت تلك الفتاة المسكينة كل سبل الحياة واستسلمت للموت في النهر الجاري، فجعل الرافعي هذه الشخصية طفلا، لأن الطفل لا تعتريه مشاعر الكبار الذين أفسدتهم صروف الدهر، ونوائب الأيام وتحولات الليالي، ثم جعله فقيرا، كادحا عاملا نهاره كله من أجل كسب قوت يومه ومساعدة أمه العمياء، ثم جعله كريما سخيا على قلة زاده وفقره، وألقى عليه الرافعي رحمه الله صورة الفقر الجميل الذي مهما خالطته ظروف الحياة يبقى الفقير فيه كريما عزيز النفس، فكان موقفه ذلك مع الفتاة المسكينة وهو أنه قدم لها شيئا مما كسبه من يومه الشاق وأمّه العمياء به أحق، والتي سوف تسأله عنه، لكنه تفانى في أرقى صور الكرم على فاقته عيلته، ليجمع الرافعي بين صورة الشخصية الثانوية المتمثلة في الطفل الصغير، وبين الشخصية الرئيسية التي تمثلها المرأة المتعجرفة، فتري كيف أن الغنى الحقيقي هو غنى النفس ولهذا يقول الرافعي رحمه الله: "وكان على هذه الأرض مساكين مؤمنون لهم من كرم الصبر شبه الغنى" (الرافعي، 2015). فهذا الطفل الصغير على فقره إلا أنه مؤمن وكريم، وتلك المتعجرفة الثرية كافرة بنعمة الله عليها ولا أدل على ذلك من قولها حين أخبرتها الفتاة قائلة: "رحماك واتقي الله في الإنسانية، فلعل في قصرك الباذخ كلبة جعلتها أحسن حالا مني"، لترد عليها: "حينما تصيرين مثلها فتعالى إلينا ويومئذ تعرفين كيف تطرد الكلاب..."

د- **ابنة المرأة المغرورة:** شكلت هذه الشخصية تحولا مفصليا في نهاية قصتنا، كونها مثلت الجزء الأخير منها، والنهاية التي آلت إليها حال المرأة المغرورة، فهي الآن تردد ما كانت تعيب به على الفتاة المسكينة، وهو لسان حالها وعينها ناظرة إلى ابنتها التي أنحكها المرض وأتعبها، وهي أقدار الله يصرفها كيف يشاء، كانت هذه البنت على حال ميسور ورغد من العيش، كونها ترعرعت في أسرة غنية، لا ينقصها شيء مما يحلم به معشر المساكين والفقراء، فغدت بين عشية وضحاها، رهينة المرض والمسغبة والهموم، وصورها الرافعي في صورة لعنة حلت بتلك المرأة حتى

تكسر غرورها على المساكين والفقراء، التي تُهرِّقهم وعاتبتهم وتلك الفتاة المسكينة ربما تكون رقما من ارقام العتاب والتكبر في لائحة الشنائم التي نالها هؤلاء من طرف تلك المرأة، "وانكفأت تلك السيدة إلى قصرها فإذا فتاتها تنتفض من وعكة الحمى، وهي في سريرها كقلب أمها في اضطرابه والتهابه، وما تعلم من اين اتصلت بها الحمى ولكن الله يعلم، ولئن كان البعوض مما يعد في أسباب المرض فلقد كان كلامها للفتاة ينفر منها كما ينفر البعوض من مستنقع ... فخرجت المرأة عن رشدها وضافت عليها الأرض بما رحبت ... على أنها لم تر ملجأ من الله إلا إليه فابتدرت تدعوه، وضرب الذهول بينها وبين اللغة ومسحت دموعها فلا تردد غير هذه الكلمات يا رب يا رب ابنتي ماذا جنت؟ مسكينة مسكينة ... مسكينة مسكينة. ولعل اختيار الرافي لشخصية البنت كأنثى يعبر أكثر مما لو كان ولدا كون البنات أقرب لأمهاتهن دون الأولاد، فهي صورة مصغرة عنها، تتألم لألمها وتبتهج لفرحتها.

هـ - شخصية البنت التي أصابها المرض، جعلت من غرور تلك المرأة لعنة حلت بها حتى تعرف ما قيمة أن تحين مسكين، ليضرب الدهر ضرباته وتخرج الفتاة البائسة ذات يوم وكانت قد أصابت عملا فتردم جانب من حالها، وبينما هي تمشي مطمئنة رفع لها شبح اسود في عرض الطريق، فجعلت تدانيه حتى حاذته، فإذا هي سيدة الأمس وقد حال لونها، واستحال كونها، وعادت من الهم كأنها منتصب في سواد، وظهرت من الحزن كأنها تمثال منصوب للحداد، وهي تلوح من الذلة والانكسار كأنما مات بعضها، وكأنما كانت حياتها من الأزهار فلعب ربيعها وروضها، وبقي جذرها وأرضها، فما تبينتها الفتاة ورأت ما نزل بها حتى نفرت دموعها حزنا، ثم رفعت عينيها إلى السماء وقالت: يا رياه مسكينة مسكينة (الرافي، 2015).

كان هذا وصفا لما تضمنته الشخصيات في هذه القصة من شعرية وسردا لكل تفاصيلها عبر هذا البيان الساحر والانتقاء الجيد لأدينا الرافي رحمه الله تعالى، وهو يصور حياة المساكين وصراعها مع غرور الأغنياء وكيف أن أقدار الله تعالى تنهال عليهم فتعرفهم معاني الفقر والألم والمسكينة.

وفي ختام هذا المبحث نخلص إلى أن الرافي قد ألبس كل شخصية ما يجعلها تتقن الدور، وترسمه حتى لكأنك تراها رأي العين، وهذا ما يحقق إضاءات وتلميحات للشعرية في هذه الشخصيات ودقة تصويرها ودورها في إثراء المعاني واللغة ككل، فيختار لكل شخصية الدور اللائق بها، وفي خضم الأحداث تتفاعل هذه الشخصيات بعضها في بعض، ويعين ذلك بلغة بديعة وعالية، حتى تكتسي هذه الشخصية الفعل الذي تقوم به في مسار السرد الذي رسمه الرافي في قصصه.

لتبقى الشخصية عالماً بديعاً ومعقداً لا تزال نسبر أغواره وخلفياته باحثين عنها متلهفين للقبض على معالمها وتشكلاتها، كما يقول عبد المالك مرتاض: "الشخصية هذا العالم المعقد الشديد التركيب المتباين المتنوع..." (مرتاض، 1998). وتبقى كتابات الرافعي في حاجة للدراسات أكثر، ولعلنا فتحنا هذا الباب راغبين في إتمامه من طرف الباحثين بدراسات أخرى، خاصة وأنه كاتب فذ يستحق قلمه أن يعنى بدراسات مفيدة في مباحث شتى.

قائمة المراجع:

1. أحمد (أبو الحسين) بن فارس بن زكريا القزويني الرازي، مقاييس اللغة، تحقيق عبد السلام هارون، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع.
2. برجسون هنري، الضحك، ترجمة: سامي الدروبي وعبد الله عبد الدائم، بيروت: دار العلم للملايين، 1983.
3. جينيت جيرار، ومجموعة من الباحثين، نظرية السرد من وجهة النظر إلى التبوير، ترجمة: ناجي مصطفى، منشورات الحوار، الطبعة الأولى 1989.
4. الحجيلان ناصر، الشخصية في قصص الأمثال العربية - دراسة في الأنساق الثقافية، للشخصية العربية - النادي الأدبي رياض والمركز الثقافي العربي، بيروت- لبنان، الدار البيضاء، المغرب، ط 2009.
5. الرافعي مصطفى صادق، المساكين، ضبط وتقديم: محمد علي سلامة، دار الصحوة، مصر، الطبعة الأولى، 1435هـ/2015م.
6. الشكعة مصطفى، الرافعي كاتباً عربياً ومفكراً إسلامياً، الدار المصرية اللبنانية، القاهرة، مصر، الطبعة الثالثة، 1419هـ/1999م.
7. صليبا جميل، المعجم الفلسفي، ج2، دار الكتاب اللبناني، بيروت، 1982.
8. العريان محمد سعيد، حياة الرافعي، المكتبة التجارية الكبرى، مصر، الطبعة الثالثة، 1375هـ/1955م.
9. لوكاتش جورج. دراسات في الواقعية، ترجمة: أمير اسكندر، القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1972.
10. مجمع اللغة العربية، المعجم الوسيط، دار إحياء التراث، ط2، 1973، القاهرة.
11. مرتاض عبد الملك، في نظرية الرواية بحث في تقنيات السرد، عالم المعرفة، رقم 240.
12. وسواس نجا، السارد والسرديات، مجلة المخبر، أبحاث في اللغة والأدب الجزائري، العدد الثامن، جامعة محمد خيضر، بسكرة، 2012.
13. وهبه مجدي، المهندس كمال، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت، 1984.